السلطان أحمد الأول

فترة الحكم: ١٦٠٣– ١٦١٧

السلطان العثماني الرابع عشر

الألقاب والأسماء الشعرية: الغازي، وبَختي

اسم الأب: محمد الثالث

اسم الأم: هَانْدان سلطان

محل وتاريخ الميلاد: مانيسا، ٢٨ أبريل/نيسان سنة ١٥٩٠

العمر عند اعتلاء العرش: ١٤ عاما

سبب وتاريخ الوفاة: التيفوئيد والنزيف المعوي، ٢٢ من نوفمبر/تشرين الثاني سنة ١٦١٧

مكان الوفاة وموقع الضريح: إسطنبول، ويقع قبره بالقرب من مسجد السلطان أحمد

أبناؤه: عثمان الثاني، ومراد الرابع، وإبراهيم، وبايزيد، وسليمان، وقاسم، ومحمد، وحسن، وسليم، وعُبيدة

بناته: وهَانْزَادَه سلطان، وعائشة سلطان، وفاطمة سلطان، وعاتكة سلطان

لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان أحمد الأول، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صور متخيلة لشجرة العائلة العظمي".

اعتلى السلطان أحمد الأول العرش بعد وفاة والده محمد الثالث وهو ابن ١٤ سنة، فكان السلطان الأول الذي لا يمتلك خبرة سابقة في الولاية، وهو ما يمثل أمرا محفوفا بالمخاطر في ظل الثورات الجلالية المتنامية في الأقاليم الأناضولية.

في الوقت الذي استلم فيه أحمد الأول العرش كانت الدولة العثمانية في حالة حرب مع النمسا في الغرب ومع الصفويين في الشرق. وكان الجيش العثماني بقيادة "جِيكَالا زادة سنان باشا" قد قضى ذلك الشتاء في منطقة "وان" بجنوب شرق الأناضول دون شن أي حملات. وما إن هاجم الصفويون حتى نقل سنان باشا الجيش إلى أرضروم، لكن هذا الإجراء أثار استياءً بين الجنود وأدى بالجيش إلى ضياع موسم الحملات هباء. وسار الجيش أخيرا بهدف فتح تبريز عام ١٦٠٥، واستطاع الجيش العثماني الانتصار على الصفويين، لكن القائد العام سنان باشا وُضع في موقف صعب عندما قام قوزيه صفر باشا والي أرضروم العام بفصل قواته عن الجيش العثماني لمطاردة العدو، فقبض عليه كأسير حرب. حيث كان الشاه عباس ملك الصفويين قد أعد كميناً في لحظة حاسمة وهزم قوات قوزيه صفر باشا. وتراجعت القوات العثمانية المتبقية في بادئ الأمر إلى وان ثم إلى ديار بكر التي تقع على ضفاف نهر دجلة. وبعد وفاة سنان باشا المفاجئة في ديار بكر استولى الشاه عباس بسهولة على شيروان وشماخي وجانجا في جنوب القوقاز. ولم تكن الدولة العثمانية قد كلفت جميع قواتها بقتال الصفويين؛ لأنها كانت تحارب النمسا في نفس الوقت، فيما كانت الاضطرابات الداخلية في الأناضول تتفاقم. ولذلك انتهت الحرب ضد الصفويين بتوقيع هدنة سميت باسم الصدر الأعظم نصوح باشا.

شكّلت الثورات التي اندلعت في الأناضول تحدياً مرعبا خلال عهد السلطان أحمد الأول؛ فقد شغل قيام تلك الثورات جُلّ اهتمامه وامتد ليشكل نطاقا أشد من التأثير. وسوف تؤدي تلك الثورات التي قُمعت على نحو هزيل إلى ثورات أخرى في الأعوام التالية. وعلاوة على ذلك زادت حالة السخط التي أفرزتها الحروب العثمانية-النمساوية المتقطعة عندما فُرض مزيد من الضرائب على الرعايا العثمانيين.

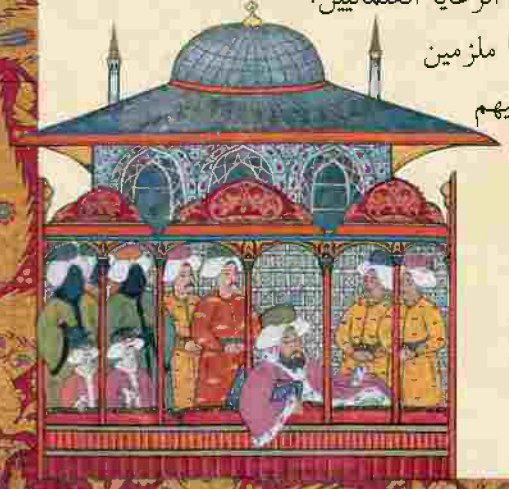

كذلك أظهرت وحدات الفرسان من الإقطاعيين علامات الضعف، حيث كانوا ملزمين بالتواجد مع الجيش في وقت الحرب ورعاية وإدارة الأرض التي عُهد بها إليهم في وقت السلم، كما تبيّن أنهم فرسان دون المستوى المطلوب للحملات. وتدهورت أيضا الأراضي الريفية التي كانت خاضعة لإدارة هؤلاء الإقطاعيين. وقد أعطى كل ذلك زخما للهجرة من المناطق الريفية إلى المدن؛ ما أدى إلى إهمال القرى والمزارع، وتقليل ضريبة الدخل الحكومية على الإنتاج الزراعي لأراضي الإقطاع.

البناء الهائل لمسجد السلطان أحمد، والمعروف أيضا باسم المسجد الأزرق لتميزه بقرميد إزنيق الرائع الذي يغطيه من الداخل، وترتفع فوق المسجد قباب رائعة وست مآذن مدهشة تطل على ميدان السلطان أحمد.

في الوقت الذي اعتلى فيه أحمد الأول العرش كان العثمانيون يشنون معارك ضارية ضد النمسا كما كانوا يفعلون من قبل في عصر أبيه. وقد ساهم فتح حصني فيسجراد وإسترجون من جديد عام ١٦٠٥ في تعزيز السلطة العثمانية في ولاشيا ومولدافيا وترانسيلفانيا، كما تم الاعتراف بالوضع الراهن من قبل أمراء ولاشيا ومولدافيا وترانسيلفانيا، الذين أثارتهم النمسا ضد الدولة العثمانية في وقت سابق. عند تلك النقطة لم يكن لدى النمسا خيار آخر غير طلب السلام. وقد نصت معاهدة سيتفاتوروك التالية، التي وقّعت عند المصب السابق لنهر سيتفا في نهر الدانوب عام ١٦٠٦، على احتفاظ العثمانيين بحصون إجري وإسترجون وكانيسا. ورغم أن المعاهدة بدت لصالح االدولة العثمانية فإنها كانت مؤشرا على الجمود العثماني المستقبلي في أوروبا. وبإبرام المعاهدة مع القيصر النمساوي اعترف السلطان العثماني للمرة الأولى بالحاكم النمساوي باعتباره ندا دبلوماسيا مساويا له، فكانت تلك هي أول مرة يحدث فيها مساواة دبلوماسية بين سلطان عثماني وملوك أوروبا المجاورين، الذين كان العثمانيون يضعونهم في السابق في مستوى أقل يساوي الصدر الأعظم للسلطان. وكان ذلك دليلا على نهاية التفوق العثماني المطلق في الدبلوماسية الدولية، والذي كان قد ساد منذ عصر السلطان سليمان القانوني. وجرى تجديد تلك المعاهدة في السنوات التالية بسبب الثورات الجلالية المستمرة التي تسببت في مشكلات خطيرة للعثمانيين. كما أعاد السلطان أحمد الأول أيضا إعطاء الامتيازات التجارية الحرة الخاصة لكل من بريطانيا وفرنسا والبندقية، التي كان قد منحها السلاطين السابقون، ومنح هولندا أيضا نفس الامتيازات.

تذكر السجلات التاريخية أن أحمد الأول، الذي أصبح السلطان العثماني الرابع عشر وهو في الرابعة عشرة من عمره والذي حكم أيضا لمدة أربعة عشر عاما، توفي بسبب نزيف معوي في سن صغيرة في ٢٢ ديسمبر/ كانون الأول سنة ١٦١٧. وقد كتب السلطان أحمد الأول، مثل كثير من السلاطين الآخرين، قصائد شعرية عديدة تحت اسم "بَختي". وكان السلطان أحمد الأول رجلا متدينا وخيّرا كما كان موضع تقدير واحترام لدى رعاياه إلى حد ما لأنه امتنع عن الانغماس في الملذات والمسليات. أما بالنسبة

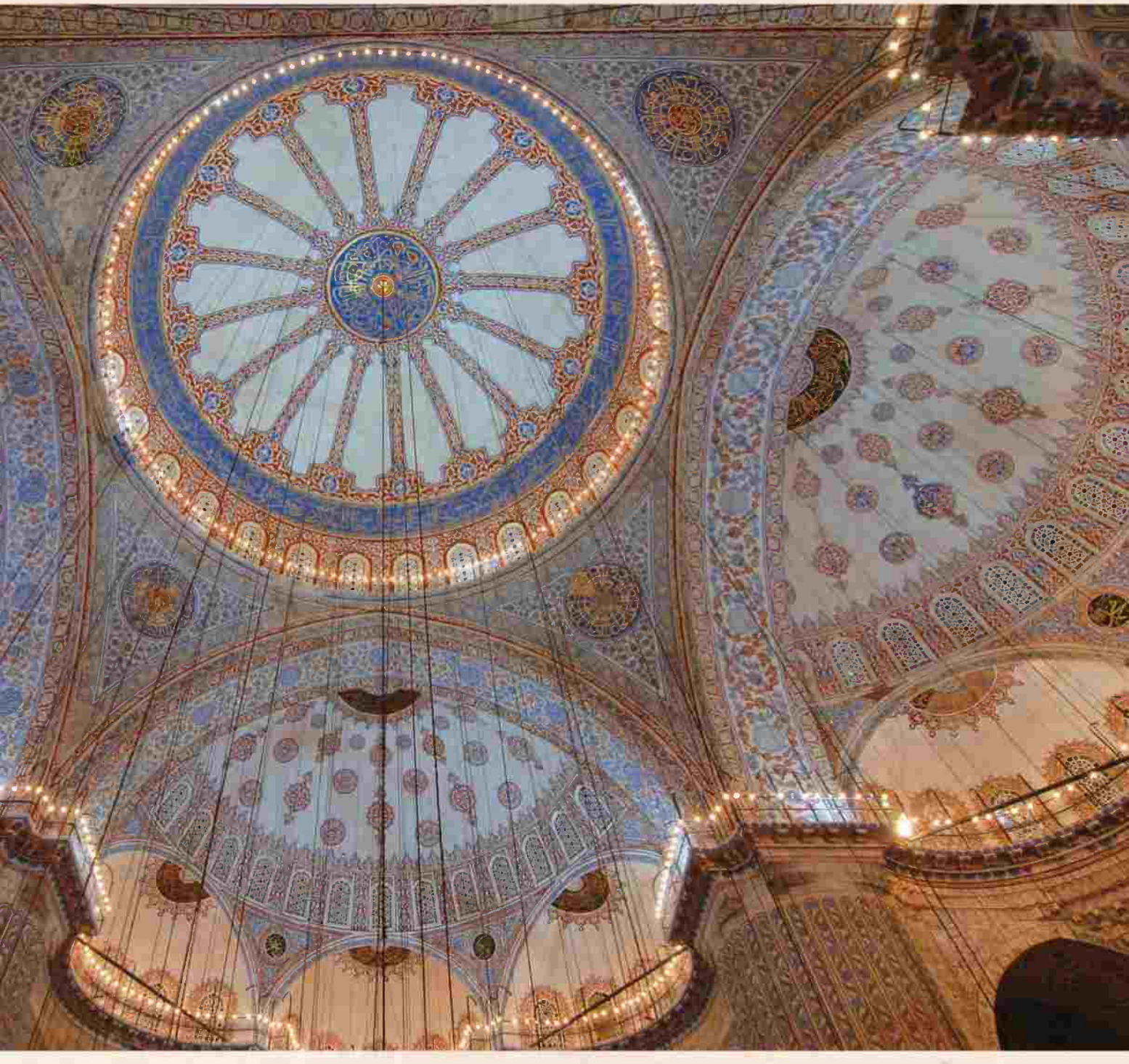

زخارف السقف في القبب الهائلة لمسجد السلطان أحمد. وتتمتع المساجد العديدة التي أنشأها أفراد من السلالة العثمانية بعظمة وفخامة أكثر من مقار الحكومة العثمانية نفسها. وفي الواقع أن السلاطين العثمانيين كانوا يفضلون العيش في حياة متواضعة في أجنحتهم الصغيرة في القصر. فلم يكن قصر "طوب قابي" أو قصر "دولما باغجة" في إسطنبول أضخم أو أعظم القصور في زمانهما، رغم أنهما كانا رائعين ومذهلين فيما يتعلق بمدى التواضع والجمال الذي كانا يتسمان به.

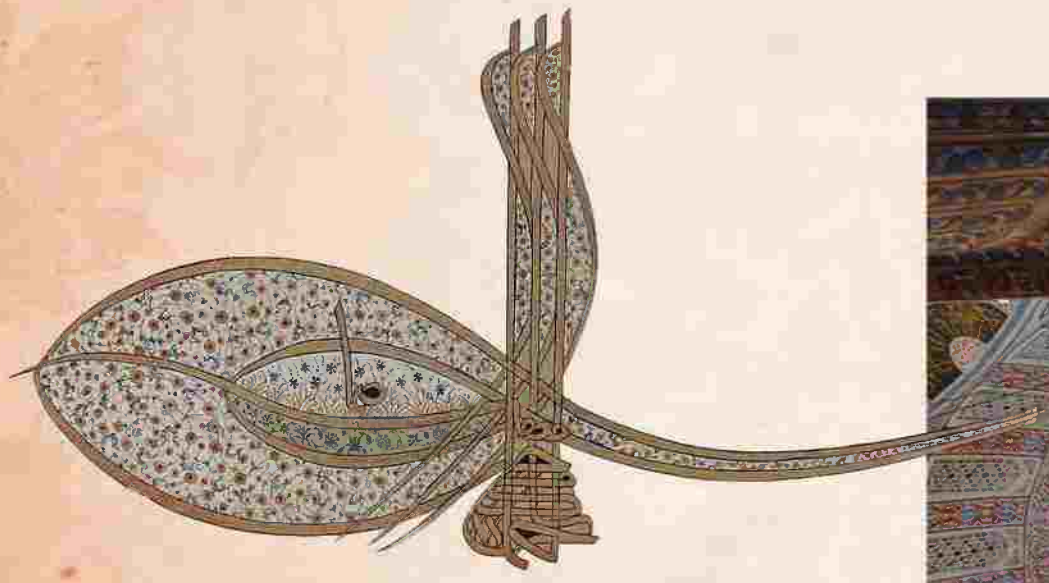

طغراء السلطان أحمد الأول

لشؤون الدولة فقد كان صارما فيما يتعلق بتنفيذ العقوبات على الأشخاص الذين يظهرون إهمالا أو خيانة في مناصبهم. والحقيقة أنه كان مجبرا على الحكم بأسلوب صارم بسبب زيادة الثورات الداخلية، وفشله في قمعها خلال عهده ولحاجته إلى استعادة سلطته.

وكان أكثر التغييرات أهمية في جهاز الدولة خلال عهده هو تعديل قوانين خلافة العرش، وبخاصة إلغاؤه تنفيذ قتل الإخوة -الذي ظهر عندما تنافس أولياء العهد على الخلافة خلال الحرب الأهلية بعد هزيمة يلدريم بايزيد في معركة أنقرة عام ١٤٠٢- وإصداره قوانين جديدة للخلافة تعتمد على "الأكبرية" (أي الأكبر سنا) و"الأرشدية" (أي الأكثر نضجا وحكمة). ووفقا للقوانين الجديدة أصبح مصطفى الأول، شقيق السلطان أحمد، هو وريث العرش بحكم القانون. وكذلك لم يعد إرسال أولياء العهد كأولياء على الأقاليم المختلفة لاكتساب الخبرة العسكرية والإدارية إجراءً معمولا به، وأصبح يتم بدلا من ذلك إبقاؤهم في جناح القصور التوائم بقصر "طوب قابي".

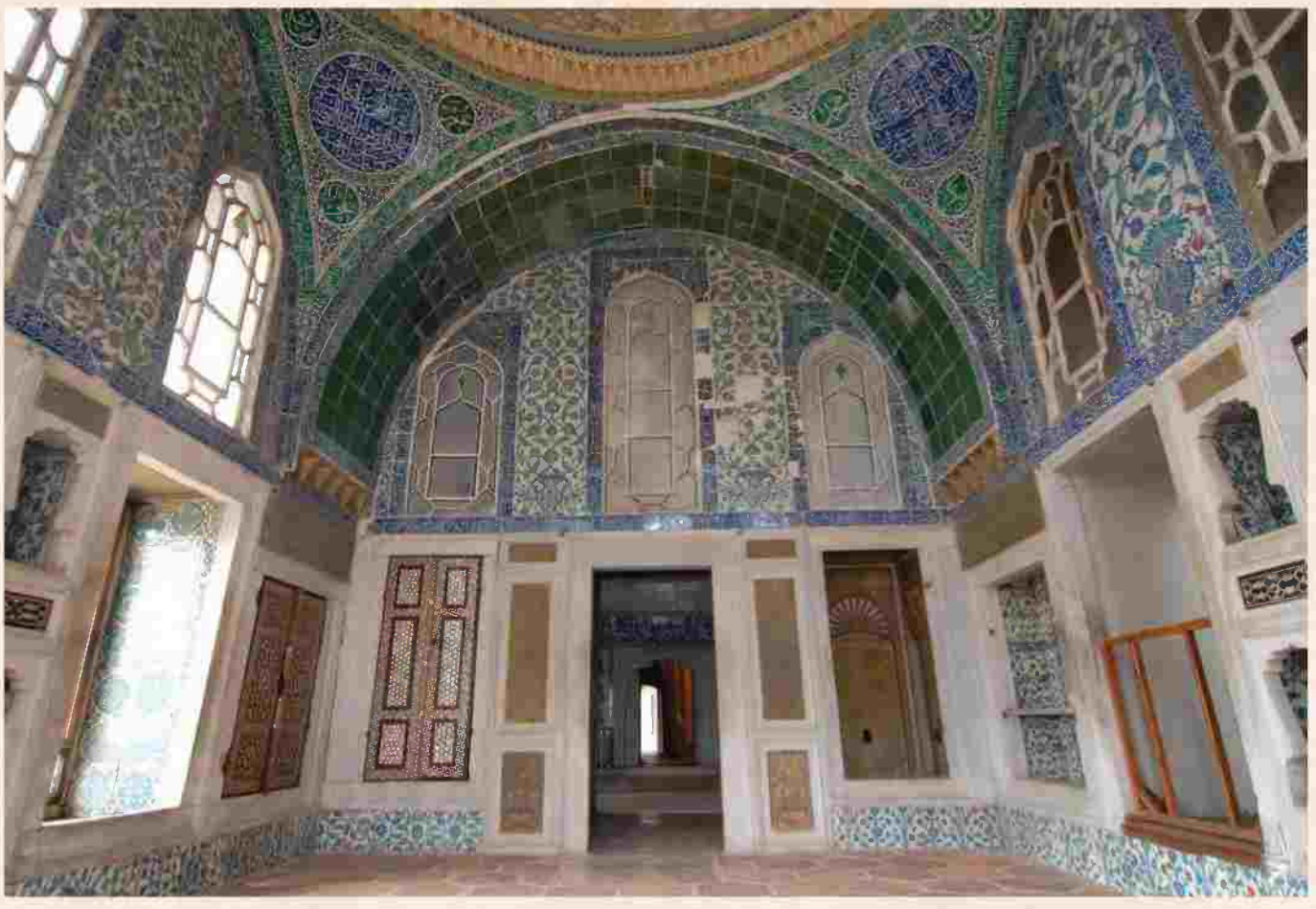

الغرفة الخاصة بالسلطان أحمد الأول، وهي رائعة بتنوعها الثري من قرميد إزنيق الذي يغطي الجدران وصولا إلى القبة.

أدى نظام الخلافة الجديد القائم على الأكبرية والأرشدية إلى ارتفاع عمر السلاطين العثمانيين كثيرا عند توليهم العرش، كما أدى إلغاء تقليد إرسال أولياء العهد لتولي مناصب ولاة السانجاك إلى تقليل فرصتهم في اكتساب التدريب والخبرة الإدارية. وابتداء من السلطان أحمد الأول، أصبح من النادر انتقال العرش من السلطان لابنه، وأصبح ينتقل بدلا من ذلك من السلطان لأخيه، أكبر فرد في الأسرة. ومازال كبير الأسرة في السلالة العثمانية يتحدد من خلال قاعدة "الأكبرية" إلى اليوم. غير أن مبدأي الأكبرية والأرشدية لم يوقفا منافساتِ الخلافة بين الإخوة خلافا للتوقعات. لكن ثمة إجماعا تقليديا بين المؤرخين على أن قيام السلاطين المتولين حديثا بقتل إخوتهم ورثة العرش كانت ممارسة تمت بشكل خاص في عهد مراد الثالث ومحمد

الثالث لقمع أية طموحات لمنافسين محتملين على العرش. ويبدو أن حوادث مؤسفة أخرى وقعت في وقت لم يكن بالإمكان تجنبها؛ فلم يكن هناك مفر من أن يفقد أفراد العائلة العثمانية الذين شنوا صراعات دموية من أجل العرش حياتهم في حال فشلهم.

شيد السلطان أحمد الأول مسجد السلطان أحمد، وهو من أعظم إبداعات المعمار العثماني، ويقع قبالة مسجد آياصوفيا. وحضر السلطان حفر الأرض بمعول ذهبي لبدء بناء مجمع المسجد. واشترك السلطان أحمد الأول بابتهاج في التجديدات الشاملة الحادية عشرة للكعبة بعد تضررها من السيول، وأرسل حرفيين من إسطنبول، وتم تجديد مزراب المطر الذهبي الذي يمنع تجمع المطر على سطح الكعبة. وفي عهد السلطان أحمد الأول أيضا وُضعت شبكة حديدية داخل بئر زمزم بمكة، حيث تم تثبيتها على بعد ثلاثة أقدام تحت مستوى سطح الماء لأن بعض المختلّين كانوا يقفزون في البئر ظنا منهم أنهم بفعل ذلك سيموتون أبطالا.

وفي المدينة المنورة وصل منبر جديد مصنوع من الرخام الأبيض من إسطنبول ليحل محل المنبر القديم المتهالك في المسجد النبوي. ومن المعروف أيضا أن السلطان أحمد الأول شيد مسجدين إضافيين في أسكُدار في الجانب الأسيوي من إسطنبول، لكنهما غير موجودين الآن. وكان للسلطان خوذة منقوش عليها أثر قدم الرسول ﷺ، الأمر الذي يشير إلى أحد أكثر الأمثلة تعبيرا عن حب الرسول ﷺ في التاريخ العثماني. ونُقش داخل الخوذة رباعية من تأليفه تقول: "ليتني أستطيع أن أحملك للأبد مثلما أحمل خوذتي على رأسي..."

قنينة ماء ورد، قصر "طوب قابي"